خواطر الحرر

ثقافتنا العربية : أيان تتجه وتسير ؟

مانظن كاتباً من الكتاب ـ بالغاً مابلغ منطقه وحواره ـ مستطيعاً إنكار ذلك الروح الفكرى الوثاب ، وتلك النهضة العلمية القائمة ، وهاتيك الخطوات الجريئة التى تقطعها الثقافة العربية فى طريقها إلى الغرب المتدفق السيل .

فأنت حيث تسير وأنى تتجه ، واجد حركات جديدة ، وأفكاراً حديثة ، ليس إلى دفعها أو ردها من سبيل ؛ ذلك أنها شائعة فى نفوس الشباب ، منبثة فى أذهان الجمهور ، الذى يتعمد بعض من الكتاب تضليله واستغلاله .

ذلك هو الحق ، نذكره وإن كان مراً ، فهل لنا أن نأمل الخير من تلك الخطوات التى تخطو إليها ثقافتنا العربية ، أم الأمر بالعكس .

نحن لا ننكر ما لثقافة الغرب من نفع وخير ، وجمال وقدر ، بل ليس من المعقول أن ننكر أنا نتأثر بما يدور حولنا ، ويقع أمامنا ، ويمج به محيطنا ، بل محيط أوروبا من سياسة وعلم ومعرفة ، واختراع ، وآداب ، وتقاليد ، وحضارة وصناعة ، وثقافة وصحافة وتجارة . . . إلى غير ذلك مما أنتجته عقول الغربيين وولدته أيديهم الصناع .

بل لسنا ننكر أن مصر ـ وهى بحكم موقعها الجغرافى ، حلقة الاتصال بين الشرق والغرب ـ يستلزم أن يكون تأثرها بالحضارة الأوروبية أكثر من تأثر شقيقاتها العربيات ؛ ولأنها من عهد محمد على الكبير ، منشئها حقاً ، آخذة فى سبيل الدنو إلى الغرب قدماً ، والانسلاخ عن الشرق شيئاً فشيئاً ، وهاهى ذى ثقافتها تزداد من الثقافة الغربية دنواً واقتراباً ، كما يزداد اقتحام مخترعات الغرب بلاد الشرق اقتحاماً ، سواء أكان ذلك أم هذا ، صادراً عن رضا وطواعية ، أم عن ازورار وكراهية . مادام عصرنا ـ وهو عصر المادة ـ يأبى الرضوخ لغير حكم السيف والمدفع .

لسنا ننكر ذلك كله ، بل لسنا نستطيع تجاهله أو التعامى عنه ؛ ولكننا ننكر على الثقافة الغربية كلها أن تكون خيراً خالصاً ولهذا نطلب إلى كتابنا وقادة الرأى منهم ، أن يتدبروا الأمر ويدرسوا ما يأتى به الغرب فى ضوء التحقيق العلمى النزيه ، ويتعرفوا السبل والمسالك الآمنة التى سلكها الغرب فيما اختط من سبل ومسالك ، وأن يتقوا الله فيما ينشرونه على الشباب من آراء وأفكار لما تختمر فى أذهان مذيعيها بعد ، أو لم يقم على صحتها دليل بعد ؛ فيروحون هدامين مخربين ، منكرين ميراثنا العربى ، لا يرون فيه خيراً ولا جمالا ؛ إلى هؤلاء نطلب

مخلصين أن يتعرفوا قيمة تراثنا العربي، ويتحسسوا مواطنه في مخطوطاته ومطبوعاته، وفي آثاره ومخلفاته، من إسلامي وعربي، وقبطي وفرعوني؛ وفي أديانه وفلسفاته، وروحانياته وماديانه، ثم فليصدروا بعد ذلك حكمهم منصفين.

ووقتئذ يحق لكل منهم أن يدعو إلى التجديد دون قيد ولا شرط، اللهم إلا قيد من الدين، وشرط من القومية الصحيحة.

صحيح أن كثيراً من عاداتنا وتقاليدنا، وأدبياتنا واجتماعياتنا، في حاجة إلى الإصلاح والتغيير، بل الهدم والتدمير، وصحيح أن الفكر العربي انحط في كثير من عصوره، فأدركته لمة من وهن، وحفنة من ضعف، ورشاش من ركود، وسنة من نوم؛ ولكن هذا كله - على فرض صحته - عارض من العوارض الزائلة التي تنتاب الأمم في كثير من أدوار حياتها، ثم تزول عند يقظة أبنائها، فهل آن لنا أن ندرك هذه الحقيقة خالصة، فنعمل على إيقاظ الأمة، وإرشادها إلى كيانها القائم في تراثها القديم، وكشف الجوانب المضيئة اللامعة فيه، الفياضة بالخير والنور، لتبنى عليه حاضرنا ومستقبلنا فتزداد، قوة ونشاطا وحياة ورجاء في المستقبل، بدل تحسس الجوانب المظلمة التي لا يخلو منها تاريخ أي أمة من الأمم؟

ليعلم هؤلاء - إن كانوا لا يعلمون - أنه ما من أمة تستطيع احترام حاضرها، وتحقيق مثلها الأعلى، ما لم تكن محترمة ماضيها، واقفة على ما لتاريخها القديم من روعة وجلال؛ ذلك أن للماضي تأثيراً بالغ الحد في رسم المثل العليا التي تنشدها الأمم لمستقبلها، فإذا ما افتخرنا بماضينا، ومضينا في الأخذ بتهذيب المنوح عنه، وتشذيب الناتىء فيه، استطعنا أن نغرس في الشباب الحاضر بذور الرجولة الحقة، والوطنية الصادقة، فيشعر كل منهم أن له ولأمته شخصية مستقلة، وذاتية حية، وكياناً قائماً؛ ومن ثم يدفعه ذلك الشعور النبيل، إلى الأخذ بأسباب الحياة الصحيحة، وتحقيق الغايات النبيلة، في شعور فياض بالقوة والإخلاص، وإحساس موفور بالكرامة والعزة المنيعة.

وليعلموا بعد ذلك أنا عرب - سواء أرضينا أم لم نرض - فما معنى التنكر لآبائنا وأجدادنا، وإنكار أدبنا ولغتنا، والزراية بتاريخنا وثقافتنا، وقطع الصلة بين ماضينا وحاضرنا؟

ألا فليعلم هؤلاء أيضاً، أنا ميالون بطبيعتنا إلى التجديد، ذلك التجديد الذي يشمل كل فروع الحياة، على أن تكون له من القديم حجة، ومن ماضينا الخالد دعامة؛ التجديد الذي يقوم على سلاح من الحق، وينهض بقوة الإيمان واليقين، التجديد الذي يرتكز على المنطق الصحيح، ويهزأ بالبهرج الزائف.

نحن نؤمن بالتجديد لأنه دليل الحياة ، ونؤمن بالتطور لأنه الباب الذى يفسح للآراء الجديدة طريقاً ، ويمهد للعلم والمعرفة سبيل التقدم والنجاح .

نؤمن بذلك كله ، وندعو إليه ، وإلى الأخذ بأسباب الحياة فيه ، وبكل مافى الحياة من أساليب وفنون ، لكننا نخشى التهور ، والتورط فى مزالقه ، فلا أقل من الحيطة الشديدة ، والحذر الدقيق ، والتأكد من سلامة مايدس على ثقافتنا من آراء وأفكار ، ليتسنى لنا النجح ونستتم فروع النهضة ، سواء أكانت علمية أم اجتماعية أم سياسية ، أم غير ذلك مما يمهد لنا خطوات الوصول إلى المثل الأعلى الحى .

أما التقليد الأعمى ، والانسياق وراء الغير ، دون تفكير ، أو إنعام نظر ، فلا نعده تجديداً بالمرة ، وإنما نعده آية الضعف والاستكانة ، ودليل الاستخذاء والجمود ، قال العلامة ابن خلدون يصف مثل هذه الحال :

« إن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه ، إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه ، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعى ، إنما هو لكمال الغالب ، فإذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقاداً ، فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به ، وذلك هو الاقتداء . . . . » ، « فإذا ذهب الأمل بالتكاسل ، وذهب مايدعو إليه من الأحوال ، وكانت العصبية ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم ، تناقص عمرانهم ، وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم ، وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم ، بما خضد الغلب من شوكتهم ، فأصبحوا مغلبين لكل متغلب ، طعمة لكل آكل » .

هذا كلام ابن خلدون علامة الاجتماع ، وشيخ أساتذته إطلاقاً ، فلنتدبره . ولنحذر كثيراً ، ونحتط أكثر ، والحذر والحيطة فى مكنتنا نحن ، فإذا يمنعنا منهما ؟ اللهم لاشىء :

ولم أر فى عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

المعرفة فى سنغافورة

تخاطب « مجلة النهضة الحضرمية » فيما يختص بالمعرفة فى سنغافورة .

المعرفة فى جاوا

نرجو حضرات مشتركينا فى جاوا أن يرسلوا قيم الاشتراكات إلينا مباشرة ، حيث إن الشيخ عمر معروف عقبه لم يسدد ماعليهم عن السنة الثانية إلى الآن .